بقلم: الشيخ عبد الآخر حماد حفظه الله
تابعت منذ مدة بعض ما نُشر في موقع المحروسة من مقالات للأخ هاشم المكي، والذي ذكر الأخ أسامة رشدي أنه صحفي عربي عاصر الجهاد الأفغاني من بداياته، وحتى الأحداث الأخيرة، ورغم ما وجدته في تلك المقالات مما يمكن أن يختلف حوله إلا أني لم أر الانشغال بكتابة شيء حولها، وربما كان من أسبابي في ذلك تلك الصبغة الإخبارية التي صبغت بها تلك المقالات، مما يجعل الخلاف فيها مقبولاً ومحتملاً، إلى حد كبير بخلاف الاختلاف حول القضايا الشرعية التي ينبغي المبادرة إلى بيان وجه الصواب فيها قدر الطاقة.
غير أنه قد لفت انتباهي ما وجدته في بعض المنتديات من جدال حول تلك المقالات، ومطالبة بعض الإخوة الكرام للعبد الفقير أن يدلي برأيه في الأمر، لذا رأيت أن أكتب كلمات مختصرات أنبه فيها على بعض ما أراه من ملاحظات حول تلك الكتابات.
ولا بد من الإشارة بداية إلى أنه ليس هناك في رأيي مانع شرعي من أن ينتقد الأخ هاشم أو غيره ما يراه من أخطاء عند بعض إخواننا المجاهدين وغيرهم، شريطة أن يكون ملتزماً في ذلك بأدب الإسلام في الحوار، وأن يتركز الإنكار على القضايا الشرعية المجمع عليها، لا على المسائل الاجتهادية التي يسوغ فيها الاختلاف.
كما أنه لا بد لمن تصدى لنقد غيره أن يتحمل نقد غيره له، ولا أظن الأخ أسامة رشدي حفظه الله إلا مفسحاً المجال لكل نقد بناء قائم على أدب الإسلام بعيد عن الإسفاف والتجريح.
وعليه فإني أجمل ملاحظاتي في القضية المثارة في النقاط الآتية:

أولاً: أول ما نحب التنبيه عليه مسألة توقيت نشر هذه الكتابات ،فإني أرى أنه ليس من اللائق أن يختار المرء لبيان أخطاء بعض إخوانه وقتاً هم فيه في أشد حالات المواجهة مع عدو عات متجبر ،لا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة ، فبدلاً من القيام بواجب بنصرة هؤلاء المجاهدين ولو بالدعاء لهم بظهر الغيب بالنصر وأن لا يمكن الله منهم عدوهم ،جاءت هذه الكتابات محملة بقدر كبير من القسوة ،غير خالية-كما سنرى- من شيء من التهكم والسخرية من رجال اجتهدوا في جهاد عدو لا يجوز أن نختلف على عداوته مهما اختلفنا في توقيت المواجهة معه وفي جدواها .
لقد كان الواجب الشرعي يقتضي بعد العدوان الأمريكي على شعبنا المسلم في أفغانستان أن تتركز جهود المسلمين على نصرة أهل الإسلام، والذب عن حرمات المسلمين، دون الإكثار من الحديث الذي لا طائل وراءه حول الأخطاء السابقة ومن المسؤول عنها، وإذا كان الهدف هو معرفة أخطاء الماضي من أجل تلافيها، فلا يصح أن يكون ذلك بأسلوب الإثارة الصحفية التي تستفز صاحب الخطأ بدلاً من حثه على ترك خطئه والرجوع إلى الصواب.

لقد حدثنا التاريخ أن بدء غزو التتار لبلاد المسلمين كان بسبب واقعة قتل جماعةٍ من التجار كان جنكيز خان قد أرسلهم إلى بلاد الملك خوارزم شاه بأموال كثيرة ليتبضعوا له ثياباً للكسوة، حيث أمر خوارزم شاه بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال، كما في البداية والنهاية (13/90)، ومع أن هذا العمل كان بلا شك خطأ من خوارزم شاه، إلا أنه حين وقعت الواقعة وغزا التتار بلاد المسلمين كان لا بد من الوقوف في وجههم، ولم يعد هناك من وقت يُضيَّع في اللوم والتقريع، بل إن أهل التاريخ المنصفين حين أرخوا لهذه الفترة حرصوا على بيان فضل الملك خوارزم شاه وعلمه كما فعل ابن كثير رحمه الله فإنه مع حرصه على بيان خطأ خوارزم شاه في ما أقدم عليه، إلا أنه بين أنه كان عالماً فقيهاً حنفياً فاضلاً له مشاركات في فنون من العلم، وهذا من إنصاف ابن كثير رحمه الله،وبه ينبغي أن نقتدي والله المستعان .
ثانياً: لاحظت أن أسلوب الأخ المكي قد اتسم بقدر غير قليل من التهكم والسخرية، وتجريح الأشخاص، وما هكذا ينبغي أن يكون تقويم الأخ لخطا أخيه، فليس من اللائق مثلاً أن يستخدم أوصاف كالتي جاءت في قوله (فبينما الملا عمر يفحص الأرض جيداً وبعناية قبل أن يضع قدمه عليها، نجد بن لادن مغرماً بالقفز في الهواء، ولا يبالي إن كانت أقدامه ستصادف الأرض بعد ذلك أم لا ؟نجد بن لادن يقفز على كل أرض ولا يخاطب شعوباً بل يخاطب تنظيمات محدودة معظمها مجهول المنشأ والمصب, ويعبر عن تيار ديني أبسط ما يميزه هو الخلاف والعداوة مع كل من سواه, ويفتت القوة الإسلامية اكثر من أن يجمعها).

وقوله: (أما حركة طالبان الذين تورطوا مع بن لادن وانزلقوا مكرهين في برنامجه "الغوغائي" وحربه الشخصية ضد العالم بقيادة أمريكا).
وكذلك اتهامه للأخ الشيخ أسامة بن لا دن بما يشبه الغرور ومبالغته في تقدير قوته كقوله: (في أواخر الأيام, كاد لسان حاله أن يقول: أنا القائد الفعلي للجميع, والذي لا يسلم لي قياده فهو إما جاهل أو حاسد).
وقوله: (لقد "نفخ" الإعلام الأمريكي بن لادن, وجعله عملاقاً دولياً موازياً للقوة الأمريكية، فصار بن لادن يصدق أكاذيب الإعلام، واعتقد أنه صار أكبر من الجميع بما فيهم حاكم البلاد).
وإني إذ أكتفي بإيراد هذه العبارات الدالة على ما قصدته، لا أريد أن أتجاوز هذه النقطة دون الإشارة إلى عدم صحة ما ادعاه الأخ هاشم المكي حول شعور الشيخ أسامة بقوته؛ وذلك أن شعور الرجل بقوته -مع اعترافنا بما عسى أن يكون فيه من مبالغة -لم يكن فقط مبنياً على نفخة الإعلام الأمريكي أو غيره، بل على أمور وحسابات حسبها الشيخ أسامة أخطأ فيها أو أصاب، بل إنا نقول إن قوة العمليات التي حدثت في الحادي عشر من سبتمبر ودقة التخطيط لها والكفاءة العالية التي تمت بها إضافة إلى ما يظهر- والله أعلم -من إخلاص الإخوة الذين قاموا بها، كل ذلك مما يدل على أنه كان على جانب كبير من الصواب حين شعر بأنه يملك من القوة ما

يستطيع به مناوءة أكبر قوة في العالم، ثم إنه ليس هناك ما يؤكد أن الشيخ أسامة كان يرى نفسه عملاقاً دولياً موازياً للقوة الأمريكية، كما ذكر المكي، وعلى قدر علمي فإنه لم يصدر عنه ما يدل على أنه يرى في نفسه نداً لأمريكا، وتصريحاته قبل الأحداث وبعدها لا تعطي هذا المعنى، ولكنها تؤكد على امتلاكه قدرات يستطيع بها إحداث نكاية موجعة في أمريكا تجبرها على ترك جزيرة العرب أو الحد من انحيازها الأعمى لدولة اليهود في فلسطين، وهناك من الفرق بين الأمرين ما لا يخفى على منصف كما ترى.

ثالثاً: لاحظت أن الأخ المكي ذكر وقائع تحتاج إلى بينة وإثبات، وإذا كنت أشاطر الأخ الأستاذ منتصر الزيات الرأي في إشارته في مقال له إلى أنه ربما توافرت معلومات للأخ هاشم المكي لم تتوفر لنا باعتباره الأقرب إلى الأحداث، إلا أنه لا بد لنا أن نتساءل عن مصدره في كثير مما رواه مما لم يكن شاهد عيان له، وذلك مثل روايته لاعتقال الأخ سيف بن الدكتور عمر حفظهما الله تعالى وفك أسرهما، فإنا نقطع يقيناً أن المكي لم يكن مع سيف حين باعه الأفغان حسب روايته، وإلا لكان هو قد بيع معه أيضاً، ويقاس على هذه الواقعة كثير مما رواه الأخ المكي من جلسات خاصة بين الشيخ أسامة بن لادن وبين الملا عمر، أو بينه وبين إخوانه المقربين له، فمن أين لنا القطع بصدق ما رواه وليس عندنا دليل على حضوره مثل تلك الجلسات وهو كما فهمنا ليس من أولئك المقربين.
رابعاً: اتهم الأخ هاشم الشيخ أسامة بن لادن باتهامات خطيرة، ولم يأت عليها بدليل ولا برهان، وذلك مثل زعمه أن ولاء بن لا دن قد تحول من الملك (إلى العلماء العاملين بأمر الملك !!)، وقوله: (وبدلاً عن العائلة السعودي المالكة نقل الولاء إلى (علماء البنتاجون) في السعودية)، ولسنا ندري علي أساس استند أولاً في دعواه أن ولاء الشيخ أسامة كان للنظام السعودي، فإن الذي يعلمه كل متابع أنه كان ومنذ سنين طوال على خلاف دائم بل عداء شديد مع آل سعود، ثم إننا نسأله من هؤلاء العلماء العاملون بأمر الملك الذين يزعم أن الشيخ أسامة قد حول ولاءه لهم ؟ فإن كان يقصد بعض العلماء الرسميين أمثال الشيخ بن باز والشيخ بن عثيمين رحمهما الله تعالى فإن الواقع يشهد أنه برغم أن الشيخ أسامة كان يحترم أولئك العلماء ولا يحمل عداء لهم، إلا أنه في نفس الوقت لم يكن راضياً عن كثير من تصرفاتهم وكان يعلن ذلك ولا يخفيه، وذلك مثل رده على الشيخ عبد العزيز رحمه الله في فتواه بشأن الصلح مع اليهود، وكذلك انتقاده الدائم لموقف أولئك العلماء من بقاء القوات الأمريكية في الجزيرة.
هذا مع عدم موافقتنا بالكلية على ما في كلام الأخ هاشم من قدح في أولئك العلماء، وتسميتهم بعلماء البنتاجون، فإننا وبرغم اختلافنا مع أولئك العلماء في بعض المسائل إلا أنا نحسبهم من أهل العقيدة الصحيحة، وأنهم في ما يظهر لنا يتحرون الحق في اجتهاداتهم مهما أخطأوا أو أصابوا.
ومن ذلك زعم الأخ هاشم أن: (العداء مع أمريكا والاشتباك العسكري معها

قد كان أمراً طارئاً على بن لادن, ومعركة (تورطت) فيها حركة طالبان)،فإن المعروف أن الشيخ أسامة ومنذ تشكيل القاعدة كان يعلن عداءه للأمريكان ،بل كان ينكر على بعض الجماعات التي تشغل نفسها بمواجهة حكامها ويرى الأجدى من ذلك العمل على مواجهة أمريكا ،وهذا في ظني أمر بدهي وثابت عند من له إلمام بالقاعدة وتاريخ نشأتها .
خامساً: حاول الأخ المكي تفسير بعض الوقائع بطريقة أراها متعسفة، ولا تستقيم مع منطق الأمور وطبيعة الأشياء:
1- ومن ذلك أنه ذكر في إحدى مقالاته أن الملا عمر ذهب بنفسه إلى بن لادن ليطلب منه الكف عن أي أعمال ضد الأمريكان،وأن بن لادن قد انفعل وغضب مدعياً أن الملا عمر يطلب منه الانتهاء عن واجب شرعي ،وأنه طلب أن يحتكم هو والملا عمر إلى محكمة من علماء المسلمين ،أو أن يترك بن لادن ورجاله أفغانستان تاركين له النساء والأطفال ،ثم أخذ الأخ هاشم في تفسير هذين العرضين بأنهما إهانة للملا عمر حيث قال : (كانت قنبلة غير متوقعه وإهانة للملا عمر أمام أركان دولته، فكلا الأمرين المطلوبين يشكل إهانة له، وبدلاً من أن يتلقى الشكر والامتنان من بن لادن إذا به يطالب بمحاكمته أمام محكمة شرعية !! لمجرد أن طالبه بشيء هو من صميم اختصاصه كحاكم، والثاني: أن خروج بن لادن ومن معه من الرجال وترك النساء والأطفال مع الملا عمر، فيه اتهام واضح للرجل بأنه جبان وخائف، وهو اتهام شنيع).
وأقول لم أفهم من هذين العرضين أنهما إهانة للملا عمر -حفظه الله - فأما العرض الأول فليس فيه وبحسب رواية المكي نفسه المطالبة بمحاكمة الملا عمر ،بل الأقرب إلى المنطق والفهم أن يكون ذكر المحكمة الشرعية قد قصد به الاحتكام إلى جماعة من العلماء في هذه المسألة التي يرى فيها الملا عمر رأياً ،ويرى هو فيها رأياً آخر ،وصحيح أن النصوص الشرعية العامة في وجوب طاعة الحاكم المسلم تدل على أنه يلزم الأفراد حال الاختلاف في الأمور الاجتهادية أن ينزلوا على رأي الأمير وأن يطيعوه حتى لو اختلفوا معه ،ولكن لم لا نقول إن الشيخ أسامة كان يرى أن هذه ليست من مسائل الاجتهاد ،بل هذا ما تدل عليه رواية الأخ المكي من أنه كان يرى أن الملا عمر يريد منعه من القيام بواجب شرعي وفرض متعين ،وما دام الأمر كذلك فما المانع أن تكون وجهة نظره في الاحتكام إلى العلماء مقصوداً به سؤالهم فيما إذا كانت هذه المسألة من مسائل الاجتهاد التي يسمع فيها ويطاع للحاكم أم أنها من قبيل الحكم الشرعي القطعي الذي يجب أن يذعن له الحاكم وغيره ؟
وأما بالنسبة للأمر الثاني فلا أدري من أين فهم الأخ المكي أن العرض بالخروج وترك النساء والأطفال فيه اتهام واضح للرجل بأنه جبان وخائف، إننا لا نفهم من هذا العرض إلا أنه يريد أن يقول له: إذا كان بقاؤنا معكم سيسبب لكم من الحرج ما لا تستطيعون تحمله، فإنا رفعاً للحرج عنكم يمكننا أن نخرج من عندكم، تاركين نساءنا وأطفالنا أمانة عندكم حتى يقضي

الله أمراً كان مفعولاً، فأين الإهانة في ذلك، ومن أين يفهم الاتهام بالجبن والخوف، وهل يترك الرجل نساءه وأطفاله عند من يراه خائفاً جباناً ؟!
2- ومن ذلك أيضاً ما ادعاه الأخ هاشم من أن أمريكا لم تكن راغبة في القضاء على بن لادن، وتفسيره ذلك بأن السياسة الأمريكية كانت تستدعي المحافظة على ورقة بن لادن وجعلها ذريعة لتبرير ضرب أفغانستان، ويستشهد لتفسيره ذاك بأنه (لم تسجل خلال السنوات الخمس التي سبقت تلك الحرب الأمريكية على أفغانستان أي محاولة جادة لإيذاء بن لادن, في الوقت الذي حاولوا مرة واحدة على الأقل اغتيال الملا عمر بواسطة شاحنه مفخخة (في أغسطس 1999) ثم حاولوا اغتياله ثلاث مرات في الليلة الأولي من الحرب الأمريكية الأخيرة).
وأقول: إذا كان من المعقول القول بأن أمريكا سعت للاستفادة من عداء بن لادن لها وجعله ذريعة لضرب أفغانستان، فإن من المبالغة القول بأنها كانت راغبة في بقائه وعدم القضاء عليه، ولست أدري بم يفسر لنا الأخ هاشم العدوان الأمريكي على معسكر الإخوة العرب في أفغانستان، عقب أحداث نيروبي ودار السلام، أو ليس الأقرب إلى التصور أن يكون من أهداف هذا القصف القضاء على بن لادن ومن معه، كما أن العالم كله قد تابع محاولات أمريكا المستميتة لإجبار حكومة طالبان على تسليم الأخ أسامة، حتى محاولة الأمير تركي لاستلامه من الملا عمر ليست بعيدة عن المطالب الأمريكي، بل ذكر الأخ هاشم في أحد مقالاته أن الترتيب السعودي كان استلام بن لا دن لتسليمه لأمريكا، أفيصح أن يقال بعد هذا كله إن أمريكا لم تكن جادة في إيذاء الأخ أسامة ومحاولة القضاء عليه؟
سادساً: على أن الإنصاف يقتضي أن نذكر أن بعض مقالات الأخ هاشم المكي قد حوت من المضامين الطيبة ما ينبغي الإشارة إليها والتنويه به، كالمساهمة في فضح الأمريكان المجرمين وبيان ظلمهم وما ارتكبوه في حق شعب أفغانستان المسلم، وذلك مثل ما جاء في مقاله عن مخازي العسكرية الأمريكية في أفغانستان، ومن ذلك ما كتبه حول المجرم جول أغا، وغير ذلك مما كنا نتمنى التركيز عليه، مع تحري الدقة فيه ،والاكتفاء من انتقاد المجاهدين ببيان بعض ما يختلف معهم فيه دون الدخول في تفسيرات قد تصل -ربما بغير قصد -إلى حد اتهام النيات والنيل من عرض إخوة كرام حملوا هموم الأمة وسعوا على قدر جهدهم في نصرتها والذب عن مقدساتها .